# العلـم و الـجـهـل في روايات عائد خصباك
## قراءة في ضوء الاقتضاء السرديّ

أ.د. عليّ إبراهيم محمّد الباحثة: شيماء حديد دانة
جامعة بابل/ كلية التربية للعلوم الإنسانية

# Scientism and Ignorance in Aiaad khsbak's novels reading on basis of narration implicature

Prof. Dr.Ali Ibrahim Mohammed Research.Shimaa Hadeed Danaa
University of Babylon / College of Education for the Humanities
Ali50ibrahim@gmail.com Shimaahadeed1959@gmail.com

## Abstract

There are readings that try to search for an honest and real explanation by which a person expresses his thoughts and guides him to a type of behavior and action that achieves his success and survival. This is what the imperative has promoted in its deliberative dimension, which is considered the son of the philosophy of success and survival that judges things through their practical results, whether those things are material such as clothing, drink and food, or intangible, such as science, knowledge, culture, etc., as these things rise through the keys to work and research according to the axes Scattered throughout the research, namely:

1. Possession and submission
2. The truth and the falsehood .
3. Life and death.

**Key words**(Possession and submission, The truth and the falsehood, Life and death)

## الخلاصة:

ثمة قراءات تحاول البحث عن تفسير صريح وحقيقي يعبر به الإنسان عن أفكاره وترشده إلى نوع من السلوك والفعل الذي يحقق بها نجاحه وبقائه؛ هذا ما نهض به الاقتضاء في بعده التداوليّ الذي يعد ابن فلسفة النجاح والبقاء الذي يحكم على الأشياء من خلال نتائجها العملية، سواء أكانت تلكم الأشياء مادية كالملبس والشراب والأكل أم معنوية كالعلم والمعرفة والثقافة وغيرها، إذ تنهض تلكم الأشياء من خلال مفاتيح للعمل والبحث على وفق المحاور المتناثرة في ثنايا البحث وهي :

1-الاستحواذ والانقياد .

2-والحقيقة والزيف.

3- والحياة والموت.

**الكلمات المفتاحية**( الاستحواذ والانقياد، والحقيقة والزيف، والحياة والموت)

## المقدمة:

إن البحث عن القانون الذي يحقق للإنسان البقاء، يؤدي إلى تأسيس أفكار جديدة وإيجاد معانٍ للفكرة من خلال فحص النتائج العملية الناجمة عن هذه الفكرة [1420]، و((استخدام الطريقة العلمية وما ترتب عليها من نفع عملي وتقدم صناعي، راجع إلى قدرة الإنسان على فهم الطبيعة والسيطرة عليها والاستفادة منها))[1421]؛ لتصبح المعرفة((أداة للعمل ووسيلة للاستفادة من الواقع والسيطرة

[1420]) الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم ، إبراهيم مصطفى ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، 2001 : 261.

[1421]) البرجماتية ، وليم جيمس ترجمة: محمد علي عريان ، المركز القومي للترجمة ، ، القاهرة ، 2008 :66.

عليه بدلا من النزاع حولها))[1422]؛ فيكون ((مردود الحقيقة المعرفية هو معيارها أي الفائدة التي تفيدها المعرفة واقعيا من الشيء أو النظرية المطروحة ؛ فالمعرفة فاعلية يحركها فينا حاجة داخلية لها تهدف حسب (بيرس) إلى الفهم والتقييم المنطقي الذي يؤدي بأفكارنا لان تكون واضحة وضوح الرياضيات والمنطق))[1423]، وهذا بحد ذاته يقتضي من الإنسان أن يكون ((أداة ايجابية للنشاط الفعال الذي يقوم به الإنسان للتكيف مع بيئته وأصبح العقل عنده مرتبطا بالسلوك العملي النافع))[1424]، فيستخدم((عقله وذكاءه في الوصول إلى ما يبتغي من حلول وتفكيره ومعرفته ومعانيه وأحكامه وتقديراته واستدلالاته سوى أدوات يستخدمها في التغلب على البيئة وإخضاعها لسيطرته وتعديلها بما يلائم مصلحته وغايته))[1425]، كل ذلك يحتاج إلى منهج يبحث عن القوانين التي توجه العقل والسلوك، وتبحث عن مبدأ القوة والمعيار الذي يسيطر ويستحوذ على فكر المتلقي والهيمنة عليه، فضلا عن بيان قابلية الإبداع في ذهن الإنسان التي تكون بمثابة مرشدا عمليا ترسم السلوك وتضع القوانين التي ينبغي أن يسير الفرد على مقتضاها في حياته اليومية، وتعمل على نجاح حياته وبقائها[1426]؛لأن الإنسان يعيش على وفق اقتضاء دنيوي تهيمن فيه أحداث ووقائع قد يجهل تمثلها، لحجب حقيقتها، هذه الحقيقة التي تعددت الطرق والأساليب للوصول إليها، غير أن هنالك علاقة تربط بين الحقيقة والأحداث والوقائع في أي مجتمع من المجتمعات، تختلف كيفية تمثلها ورسوخها وعملها في مجتمع دون آخر. هنا لابد من الكشف عن طريق التمثل وكيفية الرسوخ ونوع العلاقة، فضلا عن البحث عن معرفة الطرق والأساليب للوصول إلى الحقيقة، فضلا عن معرفة الحقيقة التي يبتغيها هذا الفرد عن غيره. وهو ما ينهض به الاقتضاء في بعده التداولي بوصفه معيارا نقديا يبحث عن العلامة التي((تعيش من خلال الاستعمال))[1427]، تلك العلامة التي تقدم ((تفسيراً صريحاً لمقدرة المتكلم على أن يعني أكثر مما يقول، أي أكثر مما يعبر عنه المعنى الحقيقي للألفاظ المستعملة))[1428]، اكتسب هذا المفهوم من معناه اللغوي إذ يورد بمعنى الحكم والتمام والخاتمة والأداء والوجوب والعليم والنفاذ والمضيّ[1429]، وتدل كلها على ((تأثير فعال على بنية اللغة))[1430]؛ بيد أن اللغة في البعد التداولي لا توجه الأفكار إلا بوصفها نظاما من الإشارات التي تعبر عن الأفكار بل أصبحت الأفكار هي التي توجه وترشد الإنسان إلى نوع من السلوك والفعل واللغة والكلمة والعبارة الملائمة للسياق لأن الفلسفة التداولية هي فلسفة النجاح والبقاء تحكم على الأشياء بنتائجها العملية.

**العلم والجهل في روايات عائد خصباك**

إن مجال الفعل وما يجعل الإنسان يسعى إلى انجاز عمل ما هو الفكرة؛ لأن الفكرة ((مشروع أو خطة للعمل والنشاط وليست حقيقة في ذاتها))[1431]وهذا يتطلب ترجمة الفكرة إلى عمل أو سلوك نافع يعود بنتائجه إلى من ترجمها وسعى إلى تطبيقها على أرض الواقع سواء أكان النفع ماديا أم معنويا، وبهذا تكون الأفكار أدوات نبحث من خلالها عن الحقائق والقيم الأخلاقية والجمالية والنفعية التي تعود بالفائدة للإنسان وتؤكد هيمنته، ويتم ذلك باستخدام العقل الذي يحقق النجاح المادي المحسوس فضلا عن

---

[1422])،المذاهب الفلسفية المعاصرة، سماح رافع مكتبة مدبولي ، القاهرة ،1973 : 49 .

[1423]) دعوة للدخول في تاريخ الفلسفة المعاصرة، هاني يحيى نصري مجد المؤسسة الجامعية ، بيروت ،2002 : 342 .

[1424]) المذاهب الفلسفية المعاصرة : 57.

[1425]) نوابغ الفكر الغربي جون ديوي، ، احمد فؤاد الاهواني ، دار المعارف ط3 ،1959 : 108 .

[1426]) ينظر : قصة الفلسفة الحديثة، أحمد أمين و زكي نجيب محمود ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، 1936: 2/ 627 .

[1427]) المقاربة التداولية، فرانسواز ارمينكو، ترجمة: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط، 1986: 22.

[1428]) محاضرات في فلسفة اللغة ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، ط 1، ليبيا،2013 : 149 .

[1429]) ينظر : لسان العرب ، ابن منظور، دار صادر، بيروت، مادة قضى : 15 / 186 .

[1430]) محاضرات في فلسفة اللغة : 141

[1431]) البرجماتية أو مذهب الذرائع، يعقوب خام،دار الحداثة، بيروت، 1985 : 149.

استخدام((الشروط اللازمة والحتمية لممارسة العلم))[1432]، بوصفه العلم- أداة ((تخلق المستقبل ...الإنساني الذي يفرض على الطبيعة آثارا لو تركت الطبيعة لنفسها ما أنتجتها))[1433]،أي أن العلم يوفر الحاجات المادية التي تشبع حاجات الإنسان مما يجعل الإنسان يتواصل مع الحياة ويهيأ له الطريق للهيمنة وامتلاك الوسيلة لخلق الحياة والسيطرة عليها وتوجيهها الوجهة التي وضع من أجلها، وكل ذلك يترتب عليه من نفع عملي وأساليب للسيطرة يعطي حقائق جديدة تغيّر من السلوك الإنساني، فباحث العلم ((يتصرف بإرادة ومسؤولية تجاه الأحداث والمواقف التي تفرضها عليه الطبيعة مستخدماً كل ما حققه العلم من اجل إخضاع الطبيعة لسيطرة الإنسان خدمة لأغراضه))[1434]؛ ويتحقق ذلك من خلال قيّام العلم بانقلابات معرفية وفكرية غايته السيطرة على العقل والهيمنة على الذاكرة،لأن العلم يبني خطابا معرفيا متماسكا على أنقاض خطاب معرفي سابق، فتداول العلم يقتضي تحويله من قيمة تبادلية إلى قيمة استهلاكية بوصفه مبدأ كل تفكير يصل من خلاله الإنسان إلى المعرفة وإدراك القوانين التي تحكم الوجود. ويبقى التساؤل عن العلم وما مدى مصداقية مفهومه وإلام يشير؟ هل يعبر عن واقع أو عن متطلبات؟ يمكن القول أن العلم مرتبط بجذور عقائدية ويعبر عن مناخات نفعية تفوح منها رائحة العقائديّة((في عنصرين أو خصيصتين أساسيتين للمشروع العلمي، هما الحاجة أو الدافع إلى السيطرة على الطبيعة، خارج الإنسان وداخله، وافتراض خضوع هذه الطبيعة لقانون أو مسار محتوم يمكن كشفه ومعرفته))[1435]وتعبر عن معانيها، فالعلم لا يعبر عن واقع وإنما يعبر عن مطالب ومتطلبات يتحقق على أرض الواقع، ومن ثمة((يُعبَّر عن الأفكار بواسطة مخطط ، بمعنى أنه كلٌّ مؤلف من عناصر مختلفة ونظام لمكوناته يجب أن تكون محددة جوهرياً انطلاقا من غايته))[3]تلك الغاية التي تهدف إلى السيطرة على الطبيعة أو خلق نعيم مثالي يتجسد في اللغة، بوصفها تمثيلا للواقع وتخلق العالم، ويتحقق ها المعنى عندما تكون الألفاظ في اللغة((دالة على خبرة حسية يمكن اللجوء إليها في عالم التجربة وليس لأية لفظ من معنى سوى مجموعة تلك الخبرات الحسية المتوقع حدوثها))[1436]، وليس تحريفا للمعرفة بما يلائم اشتراطات الأنظمة الاجتماعية والتاريخية والسياسية؛ لأن هذا التحريف يؤدي إلى جعل العلم والمعرفة شأنها شأن السلع أداة متغيرة بتغير متطلبات العصر فلم يعد يبحث عن الحقائق الكونية اليقينية التي أنتجتها الحضارة ومنحت هالة التقديس وشكلت عمادا للفكر؛ وإنما يبحث فيما تحققه العلوم والثورات التقنية والتكنولوجيا التي تسهل عملية التواصل بين الأفراد، وبهذا يكون العلم انزياحا نحو العدمية التي في ظلها يصبح الفكر بلا مركز ولا كليات ولا معنى، عالم مفكك لا مكان فيه لأية مرجعية[1437]، بيد أنه يجب على العلم أن يحيل على الواقع وإلا يكون خاليا من المعنى وإطارا صوريا قبليا للنظريات السابقة. فالعلم علامة منتجة يمكن أن يؤولها القارئ في سياق ثقافي- اجتماعي، ومن خلاله يستطيع القارئ النفاذ إلى قوانين الطبيعة وفهم قوانين العالم والمعنى الكامن خلف الوجود، فضلا عن الكشف عن حقيقة الأفكار العلمية من أجل تقييم الجهود التي وظفت وسعت إلى الظفر بالعلوم والأفكار والمعارف[1438] .

أما الجهل الذي هو نقيض العلم فهو نقص المعرفة والخبرة، وقد يكون جهلا عاما وهو يخص الإنسان بصفة عامة الذي تنقصه المعرفة والخبرة أو يكون جهلا معلنا وهو الجهل بـ((أصل الكون والأصول العميقة للمعرفة وعلاقة مستوى المعارف الحالية

---

[1432] ) العلم والقيم الإنسانية، ج. برنوسكي، ترجمة : عدنان خالد، دار المأمون للترجمة والنشر ووزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1990 : 96 .

[1433] ) العلم والقيم الإنسانية : 219

[1434] ) فلسفة الخبرة جون ديوي نموذجا، محمد جديدي، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 2004: 10 .

[1435] ) الموضوعية في العلوم الإنسانية، صلاح قنصوة، دار الثقافة، القاهرة، 1985: 14 .

[1436]) من زاوية فلسفية، زكي نجيب محفوظ: 208.

[1437] ) ينظر : نيتشه مفتتاً ، بيير بورديو ، تر : أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1996: 7

[1438] ) ينظر: مقدمة إلى نظرية المعلومات( الرموز، الإشارات والضجيج)، جون.ر. بيرس، ترجمة : فايز فوق العادة، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، دمشق، 1991 : 4 / 36 .

بالإرادة الحرة والأخلاقيات والسياسة))[1439]، يدفع هذا الجهل الباحث أو العالم والقارئ إلى وضع نتاجه أو اختراعاته على جادة الصواب عند إدراكه الخلل أو وجود ما يحتاج التعديل والتجريح، فكل علم يحتوي بداخله على جهل يحث العالم أو الباحث إلى الإسراع في تعديل عمله ونتاجه ومحاولة تجربته قبل إعلانه حتى يقتضي اكتماله تحقيق المنفعة له وتداوله بين الأجيال اللاحقة ويكون بمثابة القانون أو المدرسة أو الاتجاه .

جسدت روايات(عائد خصباك) مواقف وأصولا للأفكار العلمية التي سعى من خلالها إلى تجسيد رؤية تعالج واقعا يعرض قضايا اجتماعية – سياسية وإنسانية جاءت أحداثها وقائع تبدأ من نقطة معينة ثم تصل إلى نقطة تتشابك هذه الإحداث في زمان ومكان محددين فتتكشف فيها مصائر الشخصيات وكأن الأحداث تعرض على خشبة المسرح يقف (عائد خصباك) تارة وراء شخصياته وتارة يتركها تحقق حضورها الإنساني/العلمي لإقناع المتلقي بحركتها الواقعية ومعرفتها منطق الحياة ساعيا إلى إقناع القارئ واستثارة عواطفه، لعل المشكلة الأساس التي يحاول (عائد خصباك) إظهارها ومعالجتها وتحدد موقف شخصياته منها ومن ثمة تحديد رؤية تؤكد انحيازه لقضايا مجتمعه هي قضية الانتماء إلى الوطن والحرية والتصدي إلى فكر مغاير أو سلطة تحاول المساس بوطنه أو حرية الفرد التي تحقق وجود الفرد وإنسانيته؛ لأنه ينظر إلى وطن الذات من خلال الاغتراب فجاء وطنه ممزوجا بدلالات وطن الآخر(ألمانيا) ووطن الذات(العراق) فحاول من خلالهما أن يعالج حاضر وطنه متطلعا إلى مستقبل أبناء وطنه، والمظاهر المتداولة والتي تمس العلم والجهل لدى أبناء الوطنين العراق/ألمانيا؛لأن (عائد خصباك) ابن وطنين وطن الذات والوطن العام وكلا الوطنين أثرا في منطق تفكيره وسلوكه وفعله، بالرغم من افتقار روايات(عائد خصباك) اكتشاف النظريات والابتكارات والاختراعات، فتتداول صورة العلم في تتبع الصورة التقليدية للشخصيات داخل المجتمع ومدى استيعابها لمجريات الأحداث وتنميطها على وفق آليات محددة مسبقا .

وبناءا على ذلك يمكن النظر إلى العلم في روايات(عائد خصباك) بوصفها علامة نستدل بها التميّز بين الأفراد داخل المنجز الروائي وقدرتهم على استثمار واستهلاك أفكارهم ورؤياهم تجاه الواقع الذي يعيشون فيه؛فيكون العلم الذي تمتلكه الشخصيات متعلقا بإشباع حاجات ثقافية ورغبات تميّل إلى تميّز شخصية ما عن أخرى وتختلف عنها وتمتلك حس التباهي والشعور بذاتها الحرة غير المقيدة تستطيع المواجهة لما حولها، فضلا عن إقناع الآخر والاستحواذ على فكره، وهذا وأن كان بعيدا عن جودة العلم وفاعليته فهو يحقق قيمة معرفية؛لأن العلم علامة ترسم لوحة مادية ذات فضاء فني يجسد إبداعات إنسانية تتعلق بالنظريات والاختراعات والابتكارات للوصول إلى الكمال الذي يحقق المتعة والسعادة والمنفعة بوصفها حقائق، يمكن القول مثلما العلم أصبح مساويا للمادة في وجودها وحقيقتها؛ لأنه–العلم– أداة تنظم العقل نحو العالم فالشخصيات داخل الروايات هي –كذلك– معادل موضوعي للإنسان في الواقع الذي يسعى أن يكون مبدعا بالقوة ومنتجا بالفعل، فيكون نتاجه موجها للآخرين الذي يقتضي أن يكونوا مستهلكين ومنتجين على حد سواء وفقا للنظام الإنتاجي للمجتمعات المبدعة والمنتجة سواء أكان الإبداع والإنتاج على مستوى الوظيفة والنفعية أو الفن والعلوم والمعارف التي تتداول في المجتمعات الصناعية الحديثة. ولكن عندما لا تكتنز الروايات بالابتكارات والنظريات والانجازات العلمية، وتنزاح تلك النظريات والابتكارات إلى خلق ما يوازي تلك الابتكارات وهي خلق موقف من المجتمع أو أفراده وتفاعل معهما، فيؤدي ذلك إلى اكتساب خبرة من جهة والتخلص من القيود والأوهام المهيمن على عقل، فتنقسم الشخصيات إلى قسمين أحدهما تبقى مقيدة باشتراطات المجتمع وتتحرك على وفقها، والأخرى تسعى إلى التحرر وبناء موقف يعبر عن ثقافتها ورؤيتها من العلم والتخلص من المهيمنات التي أثرت على الشخصيات وبنية المجتمع، وحالت دون تحقيق العلم هدفه وغايته؛ فكان لابد من تخليص العلم من الأوهام الراسخة في عقل الإنسان بيد أننا نجد أن الشخصيات هيمنت عليها هذه الأوهام وأصبحت بؤرة مركزية في مجريات حياتها وهي[1440] :

---

[1439] ) مقدمة إلى نظرية المعلومات (الرموز، الاشارات والضجيج) : 4 /146

[1440] ) ينظر : فلسفة العلم في قرن العشرين :69 –71 .

1- أوهام الجنس أو القبيلة : أي الأخطاء المتجذرة في الذهن البشري تحمل صفة الديمومة والتجديد بوصفها حقائق ومعتقدات يؤمن بها الفرد لا تقبل الشك تهيمن وتسيطر على عقله وذاكرته، بصدر الأحكام والتعميمات من دون التمييز بين طبائع الأشياء ومظاهرها

2- أوهام الكهف : وهي مجموعة قيم ومعتقدات تنتجها بيئة/ ثقافة معينة لفرد ما دون الآخر، فتؤدي هذه الأوهام إلى حالة من الانقطاع والعزلة عن ثقافة الآخر، فتسيطر هذه الأوهام على شروط إنتاج الفرد وثقافته وتنميط سلوكه مما يجعله في النهاية متكيفا ومنسجما معها، فيصبح الفرد سلسلة متعاقبة من الظروف الاجتماعية المتحكمة.

3 ـ أوهام المسرح : وهو يصبح عقل الإنسان مسرحا لأفكار الآخرين وآرائهم المختلفة والمنفصلة عن الواقع، فتكون أفكار الآخرين هي المهيمن والمسيطرة على مجمل تفكيره، إذ يحتضن الإنسان قيم الآخرين ويتوافق معها وتنضج معارفه وعلومه من خلالها .

4- أوهام السوق : وهي الناتجة من الخلط المعرفي وسوء استخدام المعارف والعلوم، فتصبح المعرفة ضجيجا يبعد الإنسان عن كنه معرفتها .

ويتطلب تخليص العقل الإنساني من العادات والتقاليد والأوهام التي تعيق ذهن الإنسان للوصول إلى العلم الصحيح ويسفر على ولادة ذات غير مقيدة تواجه لما حولها، فتسعى إلى توضيح أفكارها والسعي إلى معرفة السبب الذي يجعل الظواهر تسير على هذا النحو وليس ذلك فمعيار العلم هو تحقيق المنفعة للإنسان وفائدته التي هي الحقيقة، فيصبح العلم ليس له معنى ما لم يرتبط بنتائج تترتب عليه، فتكون نتائج العلم ولما له من دور في سلوك الفرد وغايته تتحدد على وفق الوصول إلى الحقيقة التي تتجسد بمنفعته وتحقيق مرتبة علمية تكون علامة ملتصقة به سواء أكان هذا التفرد يعود إليه شخصيا أم لمجتمعه أو وطنه، إذ أن التجربة التي يقدمها الفرد من خلال العلم هي التي تؤكد صحة التجربة وإثباتها،أي أن إثبات النظرية أو إنكارها على وفق اختبار صحة الفكرة فيكون العلم بذلك((مجرد أداة كي يؤمن وجود الإنسان ، فالمعيار هو الصلاحية لأداء هذه الوظيفية وليس الصدق والكذب))[1441]؛ لذا يمكن معرفة حقيقة العلم في روايات (عائد خصباك) من خلال قدرة العلم على تصوير الأفكار ورسم الدلالة الثقافية أو الاجتماعية أو الاقتصادية تتبادل معها الأثر والتأثير في المتلقي من خلال إطار معرفي/ علمي يمكن عدها حصيلة فكر يبثه للأجيال القادمة بواسطة اللغة والقدرة التعبيرية، يمكن أن نجد صورة العلم من خلال صورة الجهل داخل العلم، لأن جهل الشخصيات لمتطلبات واقعها، أدى إلى تحكم منظومات واتجاهات أن تهيمن وتعيق بناء جيلا يتبنى مسؤولية إكمال مسيرة السابقين برؤية جديدة تنظر إلى المستقبل بأسس علمية تهدف إلى بناء مناخ فكري وعلمي ومعرفي يعبر عنها، هذا المناخ يكون خطا متواصلا يشمل الماضي والحاضر والمستقبل، إذ أن نجاح المنظومة العلمية تكمن في بناء أجيالا تنهض بإكمال الأجيال السابقة من جهة، ومن جهة أخرى، لا بد أن تشمل المنظومة العلمية تتبع مسار العلم وتأصله في حقيقة المنظومة العلمية المتسيدة، بوصفها حاضن العلم والموجه الحقيقي له. لذا أن تتبع العلم لابد أن يشمل تتبع الجهل لأنهما يمثلان وجهين لعملة واحدة . وكان لزاما أن يشمل تتبع المنظومة المتسيدة في العملية العلمية في روايات(عائد خصباك) ومدى فاعليتها، فيبتعد البحث عن قواعد اللغة العربية في الروايات أو مدى استثمار (عائد خصباك) طول الجمل وقصرها أو توظيف الجمل الغامضة، لأن الاقتضاء السردي يبحث عن تداول مفاهيم وأفكار متداولة ومهيمنة في فعل الفرد وسلوكه، فضلا عن تمثل تلك المفاهيم والأفكار الجوهر الحقيقي والنفعي لكل فعل أو عمل يقوم به.

إذا كان العلم يحقق للإنسان إنسانيته ويعبر عن فردانيته وتميزه عن الآخر؛ ذلك فإن البعد الرمزي للعلم في رواية (يا دنيا يا غرامي) تعكس صورة متداولة يقتضي تداولها وجود معنى للخلود وهو العلم يظهر بوثيقة تؤيد أن هذا الشخص يملك العلم من جهة ويحقق عليه موردا ماليا عندما ترتهن إليه وظيفة وهي تأديب الأجيال اللاحقة يتطلب منه تطوير آلياته وتحسينها، لأن المعلم يمتلك وعيًا تركيزيا وتكثيفيًا عال يحيط به الحدود والإمكانيات والفعاليات والرؤى تتعدى حدود الزمان والمكان يخرق الحدود المتعارف عليها من خلال تجربته وثقافته ووعيه .

[1441] ) فلسفة العلم في القرن العشرين : 314 .

بدأت رواية (يا دنيا يا غرامي) بتعدد أنواع من الأغاني للمطربين العرب –عبد الحليم حافظ، فريد الأطرش، محمد عبد الوهاب...الخ– يشكل المطربون الثلاث رؤية تسعى إلى تنميط السلوك الشخصية الرئيسية في الرواية(هادي) في كل مرحلة من مراحل حياته، أو تعبر أغاني المطربين الثلاثة عن تزحلق منافع(هادي) وتطلعاته، أي أن أغاني المطربين الثلاثة تعبر عن((مصالح دائمة))[1442]؛لأن هذه الأغاني استمدت قيمتها من الجمهور وتأثر في تكوينهم النفسي والذوقي والمعرفي، انفتحت هذه الأغاني في لغة حوارية بين الطلبة والمعلمين، وكأن اتجاه مطرب يعبر عن رغبات ملحة في ذات الشخصيات، إذ كانت الأغاني أساسا في بناء السرد وتناميه، والراوي هو(هادي) الذي تبنى أسلوب تناول الأحداث بطريقة التتابع أو التنامي أي تتابع شخصية (هادي) من كونه طالبا في الابتدائية إلى مرحلة تجسده مهمة التدريس في مدرسته أي تبادل الأدوار بين الجيلين وتتداول المعارف والعلوم فيما بينهما(الجيلين)، إذ أن (هادي) يدخل في فضاء مكاني وزماني محدد، يحقق به وضع القارئ في ((حالة توقع وانتظار يعيشها ... أثناء قراءة النص ، بما يتوفر له من أحداث وإشارات أولية توحي بالآتي))[1443]، فيتضاءل الاستباق والاسترجاع في الرواية أمام التتابع بدأ من العنوان(يا دنيا يا غرامي) وهو علامة تحيّل إلى تتبع الأحداث والكشف عن واقع معبأ بعبارات الهروب والبحث عن الملاذ الذي يحقق لذات استقرارها والشعور بالأمن والطمأنينة، فضلا عن البحث عن آليات تسعى إلى جمع تفتت الواقع وانحداره نحو أحلام اليقظة، وجد (هادي في البدء ذلك في (وصال) التي تحب صديقه (صالح) ومن جهة (صالح)يحب (أحلام) أما(أحلام) فقد كانت تحب (عامر) الذي كان يحب (مائدة) التي بدورها تحب (هادي) وكان هولاء الأصدقاء يجمعهم كتاب صغير يحمل أشعارا وأغاني تعبر عن رؤيتهم وميولهم: ((قبل أن يدخل مدرس الرياضيات إلى الصف، قرأ هادي في دفتر صغير كان يرافقه دائما كلمات أغنية أهواك وأتمنى أن أنساك للمطرب عبد الحليم حافظ، جمع الدفتر الصغير ذاك جميع أغاني عبد الحليم الغرامية وهادي حصل عليه بعد عناء شديد وطويل ... أراد صالح أن يستعير دفتر هادي ليقرأ فيه أثناء درس الرياضيات لكن هادي لم يستجب لا لسبب إلا لأن وصال التي يحبها هو كانت تحب صالح وترى فيه فارس أحلامها زلا ترى في هادي شيئا ..انه شخص حسود يراقب تحركاتها...))[1444]، لو تمعنا في الاسماء(هادي، وصال، صالح، أحلام، عامر، مائدة) وطرق تتداولها نجد أنها تحمل اقتضاء تتابعيا كل منهما يصب في منفعة الآخر ومرتبط بآخر ثم ترجع إلى نقطة البدء أي انتهى الحكي في موقع سردي واحد تمثل هذا الحكي بتقنية التتابع أي تتابع مجريات الحدث ومدى تحقيقه وانسجامه؛ ليتهافت الحكي في مضمون الرواية وتصبح تلك الأحلام مجرد رغبات مؤقتة محددة في حقبة زمنية معينة، ومن ثمة تحمل الجانب المعرفي المرتبط بالزمن توحي باستطاعة الفرد الهروب من الزمن في لحظة معينة ومن ثمة الانطلاق في رحلة للاكتشاف المستقبل وطرق بناءه وتحوله من جيل لآخر فهولاء كانوا طلاب في الماضي وهم الآن معلمو الحاضر ليكونوا فيما بعد صناع المستقبل، فالماضي دلّ على الزمن الحاضر بوجود المستقبل المترقب بصورة تتابعية اقتضتها حقيقة الوجود ومنفعته، إذ تمظهر هذا الانطلاق في العلم والخبرة وتقصي الأحداث ومعرفة أسبابها. يمكن القول أن الرواية جسدت العلم مرتبطا بالزمن من حيث هو كمّ من الدقائق أو المدة زمنية المحددة التي تقتضي الإمساك بأفعال وانفعالات وأحلام للفرد أنجزت وتحققت، وأن كان العلم مرتبط بالحزب الحاكم أو رئيس الحزب السيد النائب (صدام حسين) أو بشخص آخر فاحتضر العلم والانجازات قبل أن تجيء إلى الوجود واحتضرت معها الثقافة والتمازج مع الفلسفات الأخر التي تنتصر للوجود الإنساني جعلت طالب العلم مستلب في زحمة الخطاب المعرفي على وفق الثقافة السكونية السائدة في المجتمع وتتداول المعلومات على وفقها، كما في التمثيل النصي: ((سمع هادي ما قاله زميله وكان يدرس طلابه في الصف المجاور، قال المعلم : هو حصان عربي أصيل . وسأل : لماذا هو أصيل؟ سكت الطلاب وزادت حيرتهم فقال: أنا أجيبكم على هذا السؤال، أنا أجيبكم فلا تحتاروا، الحصان أصيل لجمال هيأته وتناسب أعضائه، أصيل لرشاقة حركته ...

---

[1442] ) يا دنيا يا غرامي : 17 .

1443) الزمن في الرواية العربية، مها حسن القصراوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان،ط1,2004 :211.

[1444] ) ينظر : يا دنيا يا غرامي : 7، 8 .

سكتت المعلم منتظرا ردود أفعالهم فما رأى غير نظرات حائرة نقلوها فيما بينهم، تابع من منكم يضرب لي مثلا عن استخدامه في أوقات السلم، قال أحدهم: تركبه أنت يا أستاذ وتتجول به في البساتين ... قال: أنت شاطر، أريد مثلا غيره، قال طالب يركبه أستاذ هادي ... قال المعلم ممتاز، والآن نأتي من يركبه في أوقات الحرب؟ قال الطالب: عنتر بن شداد يا أستاذ أو يركبه خالد بن الوليد في حروبه ضد المشركين، قال المعلم شاطر، أريد منكم معرفة من يركبه في الحرب الآن؟ قال طالب: يركبه "الشمر" الذي قتل الإمام الحسين في التشابيه التي يعملونها أيام شهر محرم تلك التي تقطع شوارع مدينة الحلة ... أحتار الطلاب فقال لهم: لا تحتاروا أنا أقولها لكم لا يقبل الحصان العربي الأصيل أن يركبه إلا من يستحق ركوبه على ظهره إلا فهو ليس حصانا عربي النسب، فالحصان أمامكم على السبورة لا يمكن أن يركبه إلا السيد النائب صدام حسين وهو الآن راكبه ومن خلفه الشعب بانتظار ساعة الصفر ليتقدم إلى إسرائيل يحررها من الصهاينة ... وهو على حصانه الأشقر الأصيل وبيده البندقية البرنو لذلك رددوا ورائي يحيا القائد فقالوا يحيا القائد . قال يحيا السيد النائب . فقالوا يحيا السيد النائب))[1445]،تحاول الثقافة السائدة في رواية (يا دنيا يا غرامي) أن تشكل وعيا إنسانيا مستلبا لا تتماشى مع فعل الحياة، وتحاول الرواية من جهة أخرى معرفة الثقافة المتداولة والتي اقتضتها السلطة القائمة آنذاك عبر آلياتها في زرع نسق من القيم المتداولة باستمرار الحيلولة دون بناء وعي لدى الفرد أو تنميته يقوي إحساسه بالوجود أو بعالمه الداخلي وتنقيته من الشوائب، بالرغم من أن الطلاب الصغار في ذلك التمثيل النصي لم تكن باهتة الحضور أو مفتقدة إلى العمق، وإنما في مراحلهم العمرية تلك كانت تمتلك تجربة قرائية ورغبة اكتشاف العالم لما حولها، فضلا عن كانت الطلبة يمتلكون القدرة على ملاحقة مراحل تطور الوعي الإنساني من شخصية عنترة في العصر الجاهلي والدفاع عن القبيلة إلى خالد بن الوليد القتال ضد المشركين إلى شخصية "الشمر" وقتل الإمام الحسين(عليه السلام) إلى تتداول صورة الشمر في أماكن بعيدة عن ساحة الحرب أو معزولة عن طرق المارة تجعل هذه الصورة تخل بمبادئ آل البيت (عليهم الصلاة والسلام)،يمكن وضع خطاب الطلبة الصغار في خانة الاقتضاء التتبعي، إذ مثلت صورة كل بطل من (عنترة، خالد بن الوليد، الشمر، وتتداول صورة الشمر منذ القدم) حقبة زمنية معينة اقتضت هذه الصورة دون غيرها حاول الاقتضاء التتبعي أن يحقق حالة من الانسيابية في العلم ومن ثمة حالة الاستقرار والثبات لتكون المعارف فيما بعد تتسم بالبساطة لتتداول بسهولة ويسر؛ فتكون فيما بعد حقائق ثابتة، إذ كان في البدء الدفاع عن القبيلة ثم تحوّل إلى الدفاع عن معتقد ديني، ليتحوّل فيما بعد إلى مذهب أو اتجاه ومحاولة تغيّر اتجاه جادة الصواب، ثم تمثل فيما بعد خطاب الطلبة احتجاجا على توجه صورة البطل وتنميطه فيما بعد في صورة السيد النائب وتحرير فلسطين من الصهاينة التي غذت بهذه الفكرة الكثير من الأجيال تلك الصور التي أوصلتها مفاعيل السلطة إليهم (الأجيال)، لو تمعنا في وعي الطلبة في رفضهم وقوف البطل من دون حراك ومراقبة الوضع من بعيد وكأن ما تعلموها شعارات جوفاء لا تمت للحقيقة بصلة جاء التبرير من قبل المعلم بأن حاكم إسرائيل امرأة وليس من شيمة البطل قتال امرأة، أدى هذا التبرير إقناع الطلبة وعدم تقديم مسوغات للتبرير، لأن ذلك مرتبط بالثقافة السائدة آنذاك كذلك التي تحث على دونية المرأة وعدم مجاراتها للرجل؛ لأن البطل الحقيقي لا يقاتل امرأة وإنما يقاتل رجلا أما قتال المرأة هو سخرية منه ومن مكانته ((قال الطلاب: ولماذا هو واقف ولم يتحرك إلى الآن يا أستاذ؟ قال: طبعا ينتظر !أو تقبلون السيد النائب يحارب امرأة؟ قال الطلاب: لا ما نقبل، ولكن من هي تلك المرأة، قل ما اسمها لنعرف؟ قال من غيرها! الحيّة الرقطاء جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل (من 1969-1974) ولو فعلها السيد النائب فهذه ليست شيمة الفارس،انتظروا قليلا وسترون ما سيحصل عندما يخلّفها رجلا من عندهم، أيا

---

[1445] ) يا دنيا يا غرامي : 74 – 76 .

*) قد يعد من يخالف تعليمات الحزب الحاكم من التنظيمات السردية المناهضة للحكومة، أو يحمل ممنوعات ضد الحكومة،ينفذ المخالف للحزب حالة اغتيال عشوائية يكون من اتهم بها مصيره الإعدام، فضلا عن وجود نشيد وطني المعلمون ملزمون بتلقينه للطلبة هو : لاحت رؤوس الحراب / تلمع بين الروابي / هاكم وفود الشباب / هيا فتوّة للجهاد، تنص على الانصهار التام في الحزب الحاكم والتمثل لمعانيه من قبل الطرفين المعلم والتلاميذ،ومن ثمة تهيئة الأجيال للجهاد والدفاع عن الحزب الحاكم وأنصاره،ينظر : يا دنيا يا غرامي : 46، 47 .

كان ذلك الرجل... من مبادئ السيد النائب أن لا يكون العدو الذي يحاربه تقوده امرأة))[1446]، هذا الخطاب يهدف خلق ذات حقيقية تعمل المؤثرات السلطة فيها إلى الحد الذي يوصل الفرد إلى الاقتناع بأفكار السلطة وتدجين الطلبة وتسليمها إلى حالة الاقتناع والتمثل عبر خيوط تبدو صغيرة لهذا نراه تستسلم وتردد شعار الحزب بقناعة ورضا ومن يخالف ذلك يكون عرضة للجنون أو ينفى خارج البلاد، إيذانا بذلك يمكن النظر إلى العلم بوصفه وعاء خارجيا دائريا تصب فيه انجازات الإنسان ويمنحه منفعة ذاتية يتمّ حساب انجازات الإنسان وابتكاراته ومدى وعيه بواقعه رياضيا؛ فيقوم الإنسان بدوره تقسيم انجازاته إلى أجزاء داخل الوجود الإنساني، بالرغم من أن العلم إطار يضم تحولات المجتمع والإنسان يحمل بداخله معنى الصيرورة الدائمة بذلك يكون العلم هو الذي يكوّن فاعلية المكان والزمان متجها نحو المستقبل ليتحقق فيما بعد. ونجد الاقتضاء التتبعي كذلك عندما يتولى العلم تأرخة ثقافة المجتمع عبر تسجيل الشخصيات تفاصيله وترسيخها في الذاكرة الإنسانية للأفراد في مجتمعهم تلك الأفراد الغارقة في همومها وفي وجود لامفهوم يتسم بالعبثية لسيطرة خرافات وأساطير قديمة تتداولها الشعوب بصور وآليات مختلفة على وفق ثقافة المجتمع قد تكون نتيجة تردي الوضع الاقتصادي أو حالات الحرب المتكررة أو هيمنة جهة أو حزب ما، فأصبح علم الأفراد محصورا بتلبية متطلبات الحياة أو الهجرة خارج البلاد بوصف الاغتراب الملجأ الوحيد لها،كانت الهجرة نتيجة وسائل العلم القائم على مقولة:(("العصا لمن عصى" وهذه استطاعت أن تخرج من المدرسة الفيصلية أجيالا متعاقبة بعضهم واصل تعليمه وسافر إلى شيكاغو في أمريكا أو لندن في بريطانيا، بعض اولئك ذاق أيضا لسعة عصاه...))[1447]من دون أن يكون لأولئك حقّ أو رأي وإلا العقاب أو النفي والإقصاء أو يدفعهم إلى الجنون، فـــــ (العصا) علامة تحيل على القوة ومن يملكها يجعل من حوله ضعفاء يستجدون رأفته، اقتضت العصا تحقيق من يمتلكها تحقيق الربح والمكانة والقيادة، لو تتبعنا دلالة العصا نجدها في معان عديدة منها عصا النبي(موسى عليه السلام)*التي تحولت إلى ثعبان إيناسا للنبي (عليه السلام) وتعضيدا لرسالاته بعدما عرف قوم (فرعون) بالسحر فكانت تحوّل العصا أشبه بالسحر وليس منه، وكذلك انفلاق اثنا عشر عينا والبحر للنجاة قوم (موسى)وقومه من بطش (فرعون) وطغيانه لتلتصق دلالة العصا بالقوة والهيمنة والكمال والتأثير ((أحداث الرهبة في النفوس ولإظهار الذات بمظهر تهويلي يغطي نواقصها ويمنحها كمالا ظاهريا))[1448]، جسدت هذا المفهوم شخصية مدير مدرسة الفيصلية والإعدادية التي ينتمي اليهما(علي إبراهيم الجزار) الذي تزاحمت المعاني والرؤى والمعارف في عقله ولكن كان مدير المدرسة جائرا يحاول تهميشه والانتقاص من سواء في الابتدائية لصراحته عندما قدم نقدا لاذعا لمدير المدرسة عندما حاول استهجان من طفولته وجرأته أو مدير مدرسته في الإعدادية التي بدأت تنمو في داخله ورأى أن ما ترسخه الثقافة العربية والإسلامية _خاصة- بضائع رخيصة الثمن، اختار علي الجنون وسيلة للتخلص من زحام الواقع وغوصه في الوجود اللامفهوم والعيش من اجل رغبات آنية لم تنتصر لذاتها أو لمستقبلها[1449]، كان مدير مدرسة الفيصلية يحاول أن يرّهب تلاميذه في المدرسة والشارع وكأن ما يحدثه من فعل يحقق له الكمال

---

[1446] ) يا دنيا يا غرامي: 75 .

[1447] ) سوق هرج : 68 .

*) استمدت العصا دلالتها من عصا النبي (موسى عليه السلام) التي تحولت الى حية تسعى، وبهذا التحول فاقّ تصوراته التي تدركها حواسه، يقول سيد قطب: ((ووقعت المعجزة الحارقة التي تقع في كل لحظة ؛ ولكن الناس لا ينتبهون إليها . وقعت معجزة الحياة . فإذا العصا حية تسعى . وكم من ملايين الذرات الميتة أو الجامدة كالعصا تتحول في كل لحظة إلى خلية حية ؛ ولكنها لا تبهر الإنسان كما يبهره أن تتحول عصا موسى حية تسعى ! ذلك إن الإنسان أسير حواسه، وأسير تجاربه، فلا يبعد كثيرا في تصوراته عما تدركه حواسه . وانقلاب العصا حية تسعى ظاهرة حسية تصدم حسه فينتبه لها بشدة . أما الظواهر الخفية لمعجزة الحياة الأولى، ومعجزات الحياة التي تدب في كل لحظة فهي خفية قلما يلتفت إليها . وبخاصة أن الألفة تفقدها جدتها في حسه، فيمر عليها غافلا أو ناسيا))، في ظلال القران، سيد قطب : .

[1448] ) النقد الثقافي (قراءة في الانساق الثقافية العربية، عبد الله محمد الغذامي، المركز الثقافي العربي، ط3، 2005 : 231

[1449] ) ينظر : سوق هرج : 69، 70 .

والزيادة، وبدون إحداث الرهبة يكون هنالك نقصا في سيطرته وهيمنه وتحقيق نفوذه: ((عندما يدخل المدرسة تظهر العصا في يمناه مباشرة، لا يعرف أحد كيف تظهر هكذا فجأة، من الذي ناوله إياه؟ قسم فسر الموضوع أنه كان يخبئها تحت سترته يسندها بحزام بنطلونه، من يدرس في الفيصلية وربما الطلاب الذين يدرسون في المدارس الابتدائية الأخرى أيضا أن صادفوه في الطريق ينسلون إلى بيوتهم، بعضهم يشعر بان الأرض زلزلت وألقت أحمالها إذا وقف أمامه وجها لوجه، من لا يهرب يعاقب في اليوم التالي، من يتغيب عن المجيء إلى الدوام، لا مكان عنده قبل أن يأتي بولي أمره ليقدم له عذرا مقنعا لذلك الغياب))[1450]؛ فـ(مدير المدرسة) يؤدي دوره في المجتمع ويحاول أن يرى مصداق حضوره الواقعي في المجتمع مشهودا من قبل الآخرين، وهو بذلك يعتبر رمزية المدرسة أرضا يتعلم بها الصبية ويتلقى فيها العلم على حساب حريتهم العقلية والروحية، يتمّ تداول العلم والمعارف بهذه النظام الذي تلقى اباؤهم به، ومن يخالفه أو يقدم نقدا لاذعا إلى مدير المدرسة يصبح كـ(تفاريق العصا) تحتضر حياتهم وتصوراتهم وأوضاعهم وقيمهم وموازينهم، فعندما حاجج(علي بن إبراهيم الجزار)–علي المخبل– مدير المدرسة واحتج على نقده اللاذع له في سياق قولي بالرغم من وجود اختلاف وتباين في وجهات النظر (علي ومدير المدرسة) ومحاولة كل منهما إنزال الآخر برأيه وتحقيق النتيجة التي يرتضيها على وفق سياق حال البعد الاجتماعي لكلا الطرفين:((كان علي المخبل عائدا إلى المنزل حاملا معه ربطة من الفجل، طلب منه والده شراءها من باعة الفجل عند الجسر القديم، وقبل أن يدخل درب الكهرمان الذي تقع دارهم فيه ثبت في مكانه عندها وجد نفسه في مواجهة المدير الذي هزّ له رأسه مؤكدا أنه قد رآه، وها معناه أنه دخل في عداد العاصين له ...في اليوم الثاني لم يغب علي المخبل عن المدرسة،كان قد صمم أن يكون قوي القلب إذا ما واجه المدير، ولكنه عندما أرسل المدير في طلبه بال على نفسه قبل أن يصل إلى غرف الإدارة، وبدل أن يتركه المدير لحاله بعد لك الذي جرى، أخذ يعنفه وهو جالس وراء مكتبه قائلا : هل سمعت عن طالب بال على نفسه غيرك؟ ...غيرك، وفي سنك أصبحوا ملوكا وأشار إلى الصورة المعلقة على الجدار خلفه للصبي الملك وهو بسن العاشرة، بعد هذه الحادثة بعث المدير في طلبه أكثر من مرة، وفي كل مرة عندما يدخل غرفة الإدارة يدخل بقلب واجف وأطراف مرتعشة وقد سمع تلك المقارنة، بينه وبين الملك الصبي أكثر من مرة ...ومرة لا يدري علي المخبل كيف نطق وقال للمدير : لكن يا أستاذ هناك رجال بعمرك في الأردن ومصر والمغرب وغيرها هم ملوك على بلدانهم وأنت مدير على مدرسة فيصل الثاني الابتدائية . وهنا قامت قيامة المدير، كيف لطالب صبي لم ينه الابتدائية بعد يرد عليه بتلك الطريقة التي لم يتفوه بها أحد قبله))[1451]، أقتضى النص أن يجمع ما بين معارف مشتركة وتوجهات ظرفية ومن ثمة مطالب إخبارية، اشترك مدير المدرسة و(علي المخبل) في إنشائها عمليا، لم يكن بقدر الحاجة؛ لأنه لم يهدف إلى الإقناع والتأثير وإنما تلك المعارف كانت وسائل إرغامية تضمر القوة التي تهدف إلى التغيّر في معتقدات المستقبل نحو التنميط والتقليد وأن كان هنالك خسران،لأن هدفها السيطرة والاستبداد والتفرد. مارس تلك القوة في البدء(عائد خصباك) وأخذ يتداول شخصية علي المخبل قبل أن يفقد (علي) عقله وكأنما يرسل في البدء تلافي كلام(علي) لأنه لا يعِ ما يقول من دون أن ينتج به خطابا يدين مدير المدرسة ويعريه من هالة التقديس والتفاخر بالذات،مارس(عائد خصباك) ذلك قبل أن يتجول (علي المخبل) في الشوارع، لاسيما للجنون القدرة على النقد والتعبير عن هموم مجتمعه وأقرانه ومن ثمة التعبير عن شيوع الجهل واختلال القيم والمعارف، فضلا عن التعبير من خلالها ضحايا العلم، بوصف جنون (علي بن إبراهيم الجزار) بسبب ظروف المجتمع من حوله التي حولته من مكانه الطبيعي والمعرفي إلى هائم في الشوارع يجمع الأوراق وينزوي في الأزقة ولا يأكل إلا من (مرتضى السائس) الذي يرحب((به دائما، ليس بالكلام ولكن بوجهه المستبشر وهو يراه قادما، ويعتبر اختياره للمكان الذي أمام محله نعمة أنزلتها السماء عليه لا يحصل عليها أحد؛ لأنه علي المخبل وأمثاله إنما هم نوع من البشر وجدوا لامتحان العباد))[1452]، وهذا لا ينفي بأن يكون (علي المخبل)موضع السخرية وتهافت

[1450] )سوق هرج : 67، 68 .

[1451] ) سوق هرج : 68، 69 .

[1452] ) سوق هرج : 71 .

هيأته وسيرته، من دون أن يضيف(عائد خصباك) من خلاله خطابا يعبر عن وعيه الرافض للنظام المضطهد أو ((يشفي به غليل القوى الاجتماعية المضطهدة))[1453]؛ فتكون شخصية(علي) انزياحا لها، وتكون شخصية(مدير المدرسة) انزياحا للقوى السياسية المستبدة، لو تمعنا في النص من يخالف يعد عاصيا ويتكلم وهو وراء مكتبه، ويعقد مقارنه بين الصبية والملك فيصل الثاني وكان ملكه جاء باجتهاد وسعيا دؤوب، وعندما جاءت المقارنة ما بينه(مدير المدرسة وملوك البلدان العربية(العراق، مصر ،الأردن، المغرب)انتفض المدير على عقد الصلة بينهما وأن هذه الفكرة لا ترتبط بتشابه العلاقة بينهما لاختلاف الربط بينهما، بوصفه أعلى شأنا منهم(الملوك)، ومن يقف أمامه عليه أن يستحضر سبلا لنجاته منه؛ لأنهم لا ينجون من عثرة وقعوا فيها مهما كانوا طلبة أو معلمين، فبعد حادثة التي حدثت بين(علي) ومدير المدرسة :((ليست هي غير دقائق معدودة حتى اجتمع المعلمون في غرفته بناء على طلب عاجل، عرض الموضوع أمامهم ليتخذوا إجراءا رادعا، فأيدوه جميعا إلا المدرس محمود الذي يدرس الرياضيات الذي قال كلاما واضحا"أفضل المعروف كلمة حق عند سلطان جائر" فرد المدير غاضبا: ويلك، أنا جائر؟ فقال نعم فلم يتمالك المدير نفسه بعد ذلك، ورفع قلمه الرصاص وهم بقذفه ناحيته، فامسك معاونه بكفه، فالتفت المدير إليه قائلا: هل ترضى أن يتجرأ علي هذا الأستاذ؟ أي شيء يجب أن افعل به، قل لي؟ فقال؟ لقد نقل كلاما صحيحا. فصرخ المدير في وجهه: قم عني. فقام من فوره وخرج، فقال احد المعلمين : يا مولانا، الطالب قد تجرأ والأمر أمركم فيه. نهض المدير من كرسيه وقصد ضرب علي المخبل بالعصا وقد كان واقفا ينتظر وراء الباب، خرج ذلك المعلم قبل المدير وطرح علي المخبل على الأرض وأشار له أن يستغيث بصوت عال ليسمع المدير، فاستغاث "أنا في جيرة رسول الله" كررها حتى رقّ لحاله جميع الحاضرين، وعفا المدير عنه))[1454]، إن ما يتعلق بـ(مدير المدرسة)هو الأمر والنهي وبوضع معقد يخلو من اليسر والرفق وتدرج المسائل أو يهيئ ظروف واقعية للمشاكل التي تسير تنفيذ أوامره وطاعتها، ومن ثمة تسهم في معرفة أسباب التكوين الذات للفرد وما هي العوامل التي وجهت سلوكه هذا الاتجاه من دون غيره، بيد أن تتداول صورة المهيمن والسلطوي لأنها اقتضت محاولة البحث عنها بوصفها تعاني من إحباط شخصي يبرر سلوكها المغاير يوجد في مكامن اللاواعية لمدير المدرسة فتتضافر أسباب عدة تجعله يمارس سلوكا بربريا تجاه الآخرين، جاءت هذه الأسباب نتيجة افتقاره لأبسط الامتيازات التي تضمن تفوقه المعرفي المصاحب لتطوره وتفرده، لذا نراه يرفض أي نقد أو تصريح بالحقيقة أو طرف منها، بيد أنها يسعى أن يرسم صورة الجلاد والضحية، وقد اظهر التمثل السردي أن المدير عاقب أو رفض كل من خالفه(معاونه وأستاذ محمود وعلي المخبل) في الوقت نفسه تقبل رأي الأستاذ الذي أيده من دون الاهتمام بمعاناة(علي المخبل)الذي يعد الضحية، وبهذا يرسم العلم في رواية(سوق هرج) فقرا إنسانيا فحواه موت العلوم والمعارف((يصبح لجوء الذات إلى ظلمة اللاوعي أمراً مبرراً، لاستحالة تشكل وعي طبيعي في محيط يفتقد شروط الحياة الطبيعية، مثلما يظهر عليه الحال))[1455]شخصية (علي المخبل ومعاون المدير وأستاذ محمود) الأنموذج عن التلاميذ الرافضين أو الذين قرروا المواجهة وعدم مجاراة الجلاد مع طلبة مدرسته؛لأن القوة المادية الكبيرة التي يمتلكها مدير المدرسة(الكرسي،العصا) تكون خطرة في عصر المادية فقط؛ وليس في عصر روحي التي تخفق فيه أي زعامة التي تفصل بين العلم وطلبته وتكون أكثر أهمية لو أرتبط العلم بالأخلاق ومسألة الصواب والخطأ بتعدد الاحتمالات وليس المعنى الواحد المهيمن، أن الأيديولوجيا التي يتبناها مدير المدرسة في معاقبة تلاميذه تحاول إخضاعهم لسيطرته، وضع أسس هذه الأيديولوجيا (التوسير) الذي عدها مجموعة من الأجهزة الرسمية تمارس وظيفتها في إخضاع الإفراد وتمييزهم بدعم من أجهزة الدولة الشرطة والجيش والمحاكم، بوصف هذه الأجهزة هي التي تنظم المجتمع وتعمل على زيادة الإنتاج أو القابلية على الإبداع وخلق المعنى[1456]،أي أن الأيديولوجيا هي التي تصنع وعي الأفراد

---

[1453]) خطاب الجنون في الثقافة العربية محمد حيّان السمان، رياض الريس للكتب والنشر، لندن – قبرص، ط1، 1993: 13 .

[1454]) سوق هرج : 69 .

[1455]) فاعلية السلطة في الرواية العراقية فؤاد التكرلي أنموذجا، محمد عبد الحسين هويدي : 66.

[1456] ينظر: مقدمة في نظرية الخطاب، ديان مكدونيل، ترجمة: عز الدين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية، ط، 200: 98 وما بعدها.

ومقدرتهم وليس الأفراد هم من يخلقون الأيديولوجيا، وبهذا يجعل مدير المدرسة التلاميذ الآلات يتقبلون الأشياء بحسن النية، من خلال مدير المدرسة بوصفه أحد أجهزة الدولة.

أما الأفراد التي أرخت ثقافة المجتمع من خلال استيعابها وفهمها الواقع ومحاولة وضعه على جادة الصواب أو انحرافه عن تلك الجادة بأفعال متوارثة لا تمت للحقيقة بصلة، فقد بدأت من رؤية بصرية– شكلية العلم–وصولا إلى منظومة فعلية استوحت هذه المنظومة من أحداث تاريخية واقعية وقعت في الماضي حتى أصبحت تلك المنظومة الفعلية وسيلة توصيلية تتداول بين الأجيال وتنقل معارفها وتجاربها؛ لأن((في كل هذا استمرار للحياة وتواصلها))[1457]، وتداول صورة العلم بتلك الطرق تحافظ على ديمومته على وفق نظام واحد ثابت، وقد يحمل النص –أحيانا– ((مساحة تعبيرية يقدرها السياق))[1458]؛ لرسم علاقة تبادلية معكوسة بين الإنسان والوجود؛ بناء على الوجود الحقيقي للإنسان في الوجود المدرك حقيقة فتصل إلى المعنى المقصود من وجودها؛ فالتواصل بين الأفراد علامة تنعكس على الذات الفاعلة في تحقيق منفعتها (الحقيقة) في عالمها المثالي الذي تتواصل به مع الواقع وتحقق رغباتها وتصوراتها توجد في النص رموزاً وإشارات تقتضي من القارئ فك شفراتها والولوج إلى المعنى المقصود أو معرفة حقيقته، عندما لا تكون هنالك انجازات وفلسفات ومعارف مبتكرة تقتضي معرفة مساحة التعبير لدى الشخصيات في تحقيق منفعتها ومن ثمة ملأ فراغاتها عندما تكون الشخصية لها القدرة على مواجهة الحياة وتملك الإرادة في التطلع إلى المستقبل، وتستخدم عقلها في اتخاذ القرارات، نجد هذه المعاني لدى الشخصيات في ساحة المعركة عندما يجمع المقاتلين هدف واحد وهو التضحية والمقاومة، ففي ساحة المعركة تلغى الفوارق الطبقية؛ لأن المقاتلين يدركون أن النصر لا يتحقق عند إثارة، بل يتحقق من خلال التكاثف الجهود واستثمار الطاقات وتوحيد الصفوف، أي يكون توجه الإنسان كشخص فاعل بغض النظر عن مركزه أو مكانته أو عرقه،استثمر(عائد خصباك) هذا المعنى في رواياته وجعل الشخصيات تشهد موت الأصدقاء في سبيل الوطن، وما يثير ذلك معنى حقيقيا في التعبير عن الواقع والبوح بانفعالات الفرد تجاه وطنه، فكانت المقاومة علامة تظهر إرسال قصدي تواصلي في مواجهة الذات من جهة وتفعيل عملية التواصل مع الواقع والاتحاد والاندماج معه، فتكوّن الذات معنى الحياة ومن ثمة تغيّر الذات حالة المجتمع وحقيقة الفرد أي حاولت الشخصيات أن تنشئ شيئا غير موجود أو حاولت أن تضيف في الوجود شيئا لم يكن موجودا من قبل أو تحقيقه، كلّ ذلك يعبر عن إمكانيات الإنسان أو أفعاله التي تسعى إلى التغيّر من اجل التفرد وتفضيله. نتلمس هذه الأفكار في رواية (القمر الصحراوي) التي اختزلت المقاومة في شخصية (يوسف كاظم) مدرس الجغرافية ورفيقه (حميد ناصر) وحصرهما في مدة زمنية محددة أي الحرب العراقية/الإيرانية راح أثرها الكثير من المقاتلين العراقيين من ضمنهم (يوسف كاظم) ترتب على ذلك ((معرفة التفاوت في المواقف الفردية والفئوية))[1459] إذ كانت الإشارات السياسية التي أكدها(عائد خصباك) تستشف من المواقف الشعاراتية للشخصيات على وفق النظام السياسي المتسيد في حياة المجتمع العراقي آنذاك، فقدمت الرواية ادانة صريحة للقوات الإيرانية وهجومها المتكرر على القوات العراقية في صحرائه بطبيعة انتهازية وضحالة فكرية ونزعة عدوانية فكان على القوات العراقية الرد بسرعة ومحاولة أسر الجنود الإيرانيّن، ليكونوا شاهدا على خذلانهم وتدنيسهم لتاريخهم: ((لم تكن نزهة، أن توقع قناصا في الأسر لا يعني إلا شيئا واحدا هو أن تسكت غدر رصاصته، والتي يمكن أن تنوشك لأي خطأ في التنفيذ

- إذن وقع القناص في الأسر

---

[1457]) السرد العربي القديم الأنواع والوظائف والبنيات ، إبراهيم صحراوي ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط1 ، 2008 : 96.

1458) تداخل الفنون في القصيدة العراقية الحديثة (دراسة في شعر ما بعد الستينات) كريم شغيدل، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط 1، 2007: 53.

[1459] ) الموقف الثوري في الرواية العربية، محسن جاسم الموسوي، دار الحرية للطباعة، بغداد، د.ط، 1975: 15.

ـــــ وقد تخلى عن زهوه بين أيدينا ...))[1460]؛ فمجتمع الرواية مأزوم سياسيا، كل الشخصيات تقرأ بكتاب الحرب الكبير وتقلب صفحاته وفصوله، ويمكن إعمام وظيفة قراءة كتاب الحرب على جميع الشخصيات، على الكتاب الحقيقي الذي يقرأه(يوسف كاظم) الذي يحث زميله(حميد ناصر)على فعل القراءة؛لأن الأعمام في قراءة كتاب الحرب جاء من انعدام فعل التمايز بين المقاتلين وسعي كلّ منهم الحفاظ على خيوط المعركة ورفض أي محاولة لفكّ شباكها، ولاسيما عندما يكون الهدف الانتصار على جنود العدو الذي حاول كسر الحدود بين البلدين بوصفها حدودا مقدسة لأبناء هذا الوطن أو ذاك، فالصراع في الحروب بنية نزاعية تبني مركبا قلقا من يركبه يقضي على منافسه ويهيمن عليه ويضعه تحت سيطرة دستوره وقانونه وإدارته، أي أن ((هدفها الوحيد هو اقتطاف النتائج لا غير))[1461] بعيدا عن أســس عرقية أو طائفية أو عائلية، بالرغم من وجود حالة التمايز والتفرد بين المقاتلين في ســعيهم إلى تسجيل بطولاتهم وتضحياتهم في التاريخ لتتداولها الأجيال اللاحقة؛ إلا أنها تحاول بناء نظام سياسي مشدودا إلى السلطة الحاكمة، تزامنت مع انعدام الوعي بالثقافة السياسية للقوى الحاكمة أو السلطة المطلقة ذات المرتكز المسبوك في قالب منظم باسم رئيس الجمهورية بوصفه خطابا معرفيا ثابتا مهيمنا على العقل والذاكرة، وينتقل العلم في محوره؛ لأن من ينهض به أفراد قاصرون، وهو –الرئيس–الأب الحامي والراعي لهم ولمصالحهم[1462]،أي أن العلاقة التي تجمع بين الأفراد والسلطة علاقة تتبعية تجعل من الأفراد في جاهزة للدفاع عنها وتشكيل سورا منيعا لحمايتها، وهي بذلك تفقد دورها الفاعل وتفقد الحقيقة التي تعود عليها بالمنفعة، فتكون الحقيقة/ المنفعة تصب في مصلحة السلطة السياسية، التي تمتلك إمكانيات هائلة ترويضية لأفرادها تدفع بهم إلى مناوئتها وتضيف السلطة إلى حياة الفرد حالة من السهولة والمرونة، لئلا يتمرد عليها، ويهيمن على الفرد فكرا رأسماليا يجعله أكثر انضباطيا بطريقة حضارية ولينة في جعله يبحث عن الطريق المربح والمفيد له ولبلاده يقول الملازم لـ(ـــيوسف كاظم):((أنها أفضل خطة توقع فيها عدوك في الأسر دون إطلاق رصاصة واحدة والتقييم الذي بعثوه لك جاء نتيجة معرفتنا مكان وجود الثغرة التي تسللا منها،لقد قيموك على أساس انك السبب في معرفة مكان الثغرة، وبالنسبة لي أقيمك لقوة تحملك،تلك التي قادت السيارة وقد انفجرت دواليبها الخلفية))[1463]، يحاول النص هنا أن يربط الخطاب العلمي الذي يتبناه(يوســف كاظم) بآثار الســلطة وهي على وفق رؤية(فوكو)[1464] تحاول وضع حصار على المعرفة سواء أكانت المعرفة تاريخية أم جغرافية من خلال جعل معرفة الفرد وتحصيله الدراسي يطبق على أرض الواقع وأن يتوجه على وفق مخططات السلطة الحاكمة، إذ أن السلطة سعت إلى مكافأة(يوسف كاظم) ليس لأنه خلق جيلا جديدا قادرا على بناء حضارات بلاده العلمية والمادية وإنما لأنه ضحى بتحصيله الدراسي ومعارفه وقدراته الإبداعية وان يبني صفوف مدرسته ويلقي محاضرته أو يناقش ساحات الحرب مع رفاقه المقاتلين، بهذا أن الأيديولوجية التي تتحكم في المنظومة العلمية تجعل محور العلم والمعارف القتال أو دروعا تخدمها، وكأن السلطة الحاكمة تشعر بكافة المسؤوليات تجاه أفرادها غير أنها تعيش حالة حرب تستلزم تكثيف الطاقات والمعارف لتخليص البلاد من العدو، حتى أصبح الفرد يشعر بأنه يقترب من التحضر ومناصرة الفكر العالمي الرافض إلى الوجود البيولوجي للفرد، أما جهاز الدولة الإيديولوجي المتمثل بالمدرسة أو الجامعة وغيرها فكان يتجسد في ساحة المعركة وهي حالة الانسجام مع الواقع المعيش واستلهام مضامينه، يمنح لك الشخصية المقاتلة التي جسدها(يوسف كاظم) بعدا يحقق له حضورا مستمرا في أداء الحدث في الصحراء المدرسة الكبيرة وبوصفها دالا لجوهر حياة تختلف عن الحياة في المجتمع؛ تحقق الحياة في الصحراء رسالة تواصلية مع معطيات الواقع والوعي والزمن: ((قال

---

[1460] ) القمر الصحراوي : 132 .

[1461] ) دفاعاً عن العقل والحداثة، محمد سبيلا، مركز دراسات فلسفة الدين، وزارة الثقافة، بغداد، ط 1، 2004 : 22 .

[1462] ) ينظر : الاغتراب في الثقافة العربية متاهات الإنسان بين الحلم والواقع، حليم بركات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 1، 2006 : 105 .

[1463] ) القمر الصحراوي : 60 .

[1464] ) ينظر : المعرفة والسلطة، ميشيل فوكو، ترجمة: عبد العزيز العيادي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 994، 67.

آمر الحضيرة : ـــــــــ أن مدرس الجغرافية لا يحتاج إلى جهد لمعرفة جهات الشرق والغرب، والشمال والجنوب، وهو يشرح على الخارطة،فكل شيء مبين، أما الآن في ها الليل، وسط هذه الصحراء، فانه يحتاج الى بوصلة تحدد له الاتجاهات، وتعرفه بمكان الجبهة في الشرق. فتقول له : إن جهة الشرق هي الجهة التي تندفع نحوها فوهة سباطانات مدافعنا، لترد على كل اعتداء، وتسكت أي قصـــف معادي. انك تعرف: الجبهة في مكان ما أمامك، والجيش كله بما فيه هذه الكتيبة،الوحدات تتحرك الآن، يثبت مواقعه أمام الشرق بمواجهة فرق الدبابات وفيالق للمشاة، أن تبدأ هجومها على ارض الوطن...الجبهة تقع في المكان الذي سنصل إليه، وعلى الخارطة تقع على الحدود،شـــرق البصـــرة))[1465]؛ لذا الارتباط بين الذات والوطن والعلم هو ارتباط المكان والزمان والوعي، جاء هذا المفهوم من عنونه الرواية(القمر الصحراوي) وهي حالة الرحيل عن المجتمع إلى الصحراء والاندماج معها، أصبح مرسل العلم ومتلقيه واحد (المقاتلين) يبحثون عن نجاح آخر ممتع بتحقيقه ومنفعته وباهر وإظهاره وتوظيفه في ســـياق التجربة لإعطاء خطاب الحرب صفة التداول الممزوجة بالتحرر والعودة إلى بيوتهم بالنصر، أي رسم لوحة تلامس تجربة الإنسان ومعارفه سواء أكان الانتماء إلى الوطن أم التعبير عن منافذ تصـــوراته وأفعاله ذات الصـــفة المبدعة والحقيقية ما يمكن أن نطلق عليه الجزئية المنتجة للخطاب الذي يربط الحاضر بالمستقبل .

وعندما ننظر إلى الفاعلية المستقبلية والتطلع إلى عالم الكبار انسجاما مع الواقع والوجود الحقيقي اللامدرك؛ لخلق الحقيقي للحاضر، فقوة الذات وتطلعها إلى المستقبل يجعلها تدرك حاضرها وتتغاضى الأوضاع التي تعانيها في زمنها الآني، ليستعد الحاضر بكل عناصره وتفاصيله وممكناته وحركاته وسكونه ليدخل المستقبل عالم الكبار عالم الإدراك الحقيقي لفعل الوجود، فيسمح للصغار فتح مساحة التلقي لمستقبلهم بعد أن عثر الصغار على حاضرهم المأزوم وتعاملوا معه بقوة وصلابة، ظهر هذا المفهوم في بقاء الصبية في رواية(الكبار والصغار)متجولة في الشوارع وتراقب بكثب غارات العدو تقصف مدينتهم(الطيب) وهم يواصلون ألعابهم وسباقهم في أزقة مدينتهم(الطيب) في الوقت ذاته يواصل الكبار الدفاع عن حدود مدينتهم ورد غارات العدو وزحفهم نحوها، إذ رسم (فؤاد) ورفاقه حدود الوطن بالرغم من((لم يستطع فؤاد ولا بعض رفاقه من تحاشي أن تدوس أحذيتهم على مواد لزجة عندما كانوا يتحركون فيما بينهم، ويرون بعض الأفواه التي ترسل حشرجات لا تلبث أن تنقطع، كانت مجاميع المقاتلين التي انتشرت قد أحكمت تطويقها على المكان لئلا يفلت أحد، وقد تساءل فؤاد عن سبب غياب رفيقيه لحد الآن ... وعندما لاحظ آمر الحضيرة قلقه قال: لقد اشتراكا سوية في مهمة، لا تشغل بالك، ولا تكن متجهم الوجه، عش فرحة النصر))[1466]فتحاول الرواية أن رسم خط متواصل مع المراجع السلطوية وبناء خطوط حميمية في علاقات الفرد وتخليصه من حالات الاغتراب من خلال وضع الوجود الجوهري للإنسان بنوع العمل الذي يؤديه في ساحة وجوده ومن ثمة إلزام الفرد بالقيود والقوانين والحفاظ على القيم التي شيدها الإنسان منذ القدم، ونبذ أي فكرة تنزاح إلى تدمير العلاقات العضوية بين المقاتلين والقيادة على حساب المنفعة الفردية، من هنا كانت معايير الحكم ثابتة، يبقى التساؤل عن حرية الشخصيات في العلم، وكيف كانت قدرته في العمل؟ وما مدى قوة رغبته فيهما(العلم والعمل)؟وهل تملك الشخصيات إمكانيات جديد تسهم في تغيّر مسار مجتمعه بوصفه أداة فاعلة ومهيمنة؟ لم يكن للعلم حضور مسهب أو فاعل في رواية (الكبار والصغار) شأنها شأن الروايات الأخر، لأن أدب خصباك كان منصبا في قصص الحرب ومعاناة الأسر في الحروب ما بين السلطتين العراقية والإيرانية ما تركت المعارك من أثر نفسي في أفراد المجتمع العراقي، ظهر العلم في المدرسة التي تعمل بها(زينب) أخت فؤاد الفتاة فكان خطابها ينطلق منفعلا نفسيا؛ لأنها فقدت والدتها فترك فعل الفقدان في ذات(زينب)ألما جعلها تبحث عن بديل تصب فيه أحزانها ويعيّد ذلك البديل اللحظات الحية في حياتها وعلاقتها مع الواقع، حاول (الأب)بمساعدة زوجة أخيها(سعاد) أن يساعدانها، وأن يحدا من حالة التأزم حتى تخرج من الأزمة، لأن استشعار (الأب وزوجة الأخ) للزمن النفسي لـ(زينب)مرتبط بمعنى الحزن، بالرغم من أن (زينب) هجرت ذلك واتجهت نحو مستقبلها في تعليم الأطفال وانتظار(سعد) الذي تراه بؤرة الضوء في

[1465] ) القمر الصحراوي : 12، 13 .

[1466] )الكبار والصغار : 130

ظلام عالمها الدامس حتى وصفته بـ((زهرة لكل الفصول))[1467]، لا يبرح حتى تبدد هذا الضوء وتهافت باستشهاد(سعد)في المعارك العراقية – الإيرانية مما ينص على رجوع زينب إلى أزمتها من جديد .

تعد (زينب) أنموذجا لجهاز الدولة الإيديولوجي في رواية(الكبار والصغار)بوصفها إحدى الهيئة التدريسية في المدرسة الابتدائية، يكشف أنموذج (زينب) عن تماسك الأفكار التقليدية للمجتمع العراقي طلبة والمعلمين على حد سواء، ولم يهيئ الجيل الجديد الأسباب لاقتحام الغد، بحكم الحروب الصراعات السلطوية مما تجعل عقل الأجيال الجديدة تحمل عصبية فكرية أو حدة في الجدل، لأن تم بناء عقلها العربي على وفق ثقافات وأسس فلسفية ونظرية مسبقة دون تقصي جدواها أي إن العقلية العربية عقلية يقينية صرفة[1468] لا تقبل أن تفند آراءها أو تعترض على أحلامها فضلا عن لم تبنّ العقلية العربية على أسس عملية تجعل الفرد منطلقا إلى الواقع الخارجي كاشفا من خلاله–الواقع الخارجي– عن قدراته ومناطق عمله حتى يبني مقومات حياته الإنسانية التي تهيأ له حياة طبيعية، ومن ثمة تجعل الأسس العملية الفرد منطلقا كذلك إلى تحقيق أهدافه في الوجود ورفض أي حاجز يعترضها أو يقف دونها، لكن طريقة التلقين المعلومات وإلقائها العامل الأساس في التعليم: ((في البداية سألت زينب تلميذاتها عن فصول السنة، فعدت أكثر من تلميذة ما حفظته على ظهر قلب، ثم سألت تلميذاتها عن خصائص كل فصل، فاجبن بشكل نال رضى معلمتهن واستحسانها، وهن يجبن على السؤال مختصرات، وهي تسهب في القول عن خصائص وميزات الفصل الواحد))[1469]،هذا التنصيص يكشف عن عدم الإيمان بالجانب العملي ولذي يعود بالمنفعة للفرد أو المجتمع، ولم يسهم في إنتاج قادة استراتيجيين للمجتمع، أما اجتماع الطالبات على الإجابة قد ركز على بناء العمل الجماعي*في طرح الإجابة وهذا الجمع لو وظف هذا بناء عمل يسهم في جمع معلومات تغيّر مفاهيم ومعان وتجعل البلاد تتفوق على البلدان الأخرى وتعطي قدرة استيعابية للفرد في العلم والدين ونشدان التغير على وفق متطلبات الواقع والمجتمع؛ غير أن يظل الطفل ((يأخذ العبر من البطولات مع الحليب الذي يشربه))[1470]من دون إعطاء الأجيال وتغذيتهم برؤية متكاملة تبين له علاقته مع ربه أو أخيه أو الطبيعة وتجعله من أصحاب العلم و الابتكارات والأفكار التي تبني الحضارات؛لأن انجازات،أي بلد من البلدان يكون متجذرا في علمه، إذ أن العلم بذرة أن وجدت الأرض الصالحة لنموه تنتج التكنولوجيا والاختراعات العلمية ويبعث على الابتكار والإبداع في مجالات الحياة كافة، ومن ثمة خلق عقل يؤمن بالمذهب التجريبي شأنه شأن العقل الأمريكي الذي ربط بين قوة الاقتصاد وملكية الاختراع وضيافة وإيواء العقول المبدعة التي هاجرت من بلدانها[1471] ولا غرابة عندما ينظر للعلم بوصفه صانع المعجزات ولاسيما عندما أخذ المجتمع الأمريكي يعبد العلم ويعبد الفرد في المجتمع الأمريكي النجاح ويسعى إلى تحقيقه لأنه الأساس في تطور البشرية والحضارة الإنسانية[1472]. بيد أن يبقى المجتمع الروائي لـ(عائد خصباك)الذي هو معادلا موضوعيا للمجتمع العراقي آنذاك يغذي أجياله ببطولات وانجازات الأجداد بوصفها تراث لا يغتفر لمن يقفز عليه:((اسمع، إن الإحساس بالبطولة يتم توزيعه في مساواة منذ الولادة، هكذا أظن، وقد أخذ ابنك نصيبه منها من الآن، ربما تظهر في لحظة ما عندما تستدعي الحاجة لأن تظهر ...

---

[1467] ) الكبار والصغار: 136 .

[1468] ) ينظر : تكوين العقل العربي : محمد عابد الجابري ، دار الطليعة ، بيروت ، 1982: 78 .

[1469] ) الكبار والصغار : 136 .

* ) أن العمل الجماعي حضور قوي في الروايات وهو ينص على العمل الجماعي بين أفراد المجتمع الواحد كـ اجتماع الصبية في اللعب والتحدي للهجمات على مدينتهم، وكلك اجتماع المقاتلين في ساحة الحرب للدفاع عن وطنهم، لكن ما يفتقر إليه المجتمع الاجتماع في مواجهة التقاليد والعادات ونصرة العلم حتى يسهم في تغير مسار العلم والدين واللغة والتغير، فيكون منطلقا براجماتيا نفعيا يجمع ما بين قوة القيم والعلم.

[1470] ) الكبار والصغار : 153 .

[1471] ينظر : موجز تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، فرانكلين آشر : 142.

[1472] ينظر : حركة العصر الجديد (مفهومها ونشاتها وتطبيقاتها)، هيفاء بنت ناصر الرشيد،مركز التأصيل للدراسات والبحوث، ط2، السعودية، 2015 :69-71.

ـ سأقول له كل ما جرى، سأحدثه عن الحفلة التي سيقيمونها رفاقي مبتهجين، وهم يطلقون الرصاص في الفضاء...سأحدثه عن الإحساس بالبطولة التي يتوزع بين الناس بالتساوي، لكنه لا يظهر إلا في اللحظات الحاسمة ... سأقرأ له كتاب الجغرافية بنفسي، لئلا يرى الحدود مجرد خطوط متعرجة على الورق كما كنا نقرأها من قبل ... سيكون له اسم واحد منكم، سعد أو عبد الرزاق أو فؤاد))[1473]، تشكلت قيم الوسيلة والغاية للأجيال منذ الولادة؛ ليتمّ تنشئتهم اجتماعيا على أساس الظروف البديهية التي تفرض نفسها على المجتمع والحياة، لذا على الفرد داخل مجتمعه من نعومة أظافره تبني السلوك الواقعي الذي يفرضه عليه الواقع المحسوس سواء أكان بالتجربة أم بالحس؛ إذ سعى (رافع) إلى تهيئة وليده الصغير والاستعداد إلى تغذيته على وفق ثقافة الضوابط والمنافع التي تعود على(الطفل) وعلى مجتمعه بالمنفعة التي هي الحقيقة، بوصف المعايير والقيم والضوابط هي التي تبني مجتمعه ومن ثمة تبني دولته /بلده هذا من جهة، ومن جهة أخرى نرى أن (رافع) يحرص على تمجيد بطولة زملائه(سعد وعبد الرزاق وفؤاد) بوصفهم مبدعين ضحوا بأرواحهم من اجل مدينتهم (الطيب) ومن ثمة حدود بلدهم، فهم((جزء من مذاكرة الدرس لحفظه في الذاكرة والنفس، ... جزء من موضوع هذه الأرض))[1474].

إيذانا بذلك يمكن القول إن العلم يرتبط بإرادة الإبداع والانجاز والفعل في أي عصر أو مكان من تاريخ الإنسان؛ لأن العلم هو تعبير عن علاقة الإنسان بواقعه من جهة والعالم المحيط به من جهة أخرى؛ لذا نرى بالعلم يسعى الإنسان –دائما– إلى إعادة صياغة الطبيعة وتحليلها على وفق ما يملك من قوة التعبير والتأثير فيمكن القول أن تبلد العلم في روايات (عائد خصباك) يعود إلى عدم وعي شخصياته بواقعها أو العالم من حولها، فهي تسير على وفق خطوط موضوعة مسبقا وتحاول الأجيال التي سبقت أن تضع الخطوط لما بعدها ومن يتجاوز هذه الخطوط يكون مصيره الارتكان إلى ظلمة لاوعيه واستحالة تشكل وعي طبيعي، يتمثل هذا الارتكان أن الذات لم تبحث عن تاريخها الشخصي ولم تعيّ الخطوط المثيرة في تشكيلها وبلورتها، فهي –الشخصيات– تحاول الهرب أو الابتعاد عند تفاقم الأمور والأزمات التي تركت فيها عقدا مزمنة ملازمة لها على الدوام،فهي لا يبحث عن معنى حياتهم أو معرفة المحطات المهمة في تشكيلها أو يمكن القول أن شخصيات (عائد خصباك)الروائية قد تشربوا ثقافتهم من منبع واحد، ينحسر تفاعلهم مع مجتمعهم في تلبية الحاجات المادية التي يحافظوا فيها على البقاء، أثرت في أفعال الشخصيات وتفكيرها وسلوكها وعاداتها ثقافة السوق التي يموت ويحيا على وفقها وخلقت هذه الثقافة انساق جديدة تنهض على قوة الفرد وضعفه، فأصبح ما يقابل الظلم نسق الضعف، ونسق الجهل يقابله الفقر، لأن العلم في حقيقته صناعة يحتاج إلى مهارة ومن ثمة يمتلك التجارة بوصفها التقنية التي يدخل فيهما معترك الحياة، لم يعد المجتمع الإنساني أو ساحة وجوده تقتضي أن الثقافة هي من تكوّن شخصية الإنسان وتحدد سماته وإنما القوة التي يصدر منها وهي التي تجد إشكال وأنماط سلوكه، لأن الإنسان ليس هو العنصر الأول في المجتمع وإنما نافسه في الصدارة الآلات والاختراعات الحديثة التي أصبح من الصعب الاستغناء عنها.

لو تمعنا في المعرفة / الجهل في بناء هيكلية بناء الروايات ومضمونها، نجد أن(عائد خصباك)عبر عن الأفكار والتصورات المتجسدة في أفعال الناس وأحكامهم الانفعالية النابعة الحاجة فتقود الحاجة الفرد نحو رغباته واتجاهاته وتصدر من خلالها الأحكام الخلقية قد تتوافق مع العادات والتقاليد والقوانين السائدة في المجتمع أو تتوافق مع قناعات الفرد وما يحقق بقائه والعمل من اجل نفسه فقط، إذ يرى (عائد خصباك) أن المكون العقلي المعرفي للفرد ترتبط بالاهتمامات العملية ذات النفع المادي

---

[1473] ) الكبار والصغار : 153، 154 .

[1474] ) الكبار والصغار : 100 .

*) إن سيكولوجية التنشئة الصحيحة للفرد والتي تعود عليه بالنفع وتحقق بقائه لابد أن ترتبط بالقيم بمجمل انواعها سواء أكانت قيم دينية التي ترتبط بالمعتقدات الفرد وتعاليمه الدينية، أم كانت قيم اجتماعية ترتبط باهتمامات الفرد بالآخرين وأن تطلب التضحية من اجلهم، أم كانت القيم قيما اقتصادية ترتبط بالنفع المادي للفرد، أم كانت قيم سياسية ترتبط بالسلطة أو القوة والسيطرة والاستبداد والعمل السياسي، أم كانت قيم جمالية التي ترتبط بكل ماهو جميل ومنسجم مع المجتمع، أم كانت قيم أخلاقية وهي القوانين والأحكام التي يرتضيها المجتمع ويعمل على وفقها . ينظر : سيكولوجية التنشئة الاجتماعية، محمد صالح أبو جادو، دار المسيرة للطباعة والنشر، عمان : 212 .

الذي لا يرتقي إلى بناء المجتمع أو الدخول إلى مكونات المجتمع وتشكيل قيمه وأنظمته،لأن مجتمع (عائد خصباك) الروائي يفتقر أفراده إلى البحث عن الحقيقة .

يمكن تصنيف المعرفة أو تطور الفكر المعرفي في روايات (عائد خصباك) مرحلة الطفولة تلك المرحلة[1475]التي يفسر فيها الإنسان المجتمع إلى أمور خارقة والعلوم والمعارف تتأتى عن طريق المعجزات والأساطير والمعتقدات ونجد ملامح إلى المرحلة الوضعية تلك المرحلة التي اعتمدت على الملاحظة والتجربة ولكن تمثلت في الحروب والدفاع عن السلطة أو عن منافع مادية آنية، تمثلت المرحلة البدائية التي هيمنة فيها الخوارق والخرافات.

## المصادر والمراجع


1. الاغتراب في الثقافة العربية متاهات الإنسان بين الحلم والواقع، حليم بركات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 1، 2006 :105 .
2. البرجماتية ، وليم جيمس ترجمة: محمد علي عريان ، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2008 .
3. البرجماتية أو مذهب الذرائع، يعقوب خام،دار الحداثة، بيروت، 1985 .
4. تداخل الفنون في القصيدة العراقية الحديثة (دراسة في شعر ما بعد الستينات) كريم شغيدل، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط 1، 2007 .
5. تكوين العقل العربي : محمد عابد الجابري ، دار الطليعة ، بيروت ، 1982.
6. حركة العصر الجديد (مفهومها ونشاتها وتطبيقاتها)، هيفاء بنت ناصر الرشيد،مركز التأصيل للدراسات والبحوث، ط2، السعودية، 2015 .
7. خطاب الجنون في الثقافة العربية محمد حيّان السمان، رياض الريس للكتب والنشر، لندن – قبرص، ط1، 1993 .
8. دعوة للدخول في تاريخ الفلسفة المعاصرة، هاني يحيى نصري مجد المؤسسة الجامعية ، بيروت ،2002 .
9. دفاعاً عن العقل والحداثة، محمد سبيلا، مركز دراسات فلسفة الدين، وزارة الثقافة، بغداد، ط 1، 2004
10. الزمن في الرواية العربية، مها حسن القصراوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان،ط1، 2004 .
11. السرد العربي القديم الأنواع والوظائف والبنيات ، إبراهيم صحراوي ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط1 ، 2008 .
12. سوق هرج ، عائد خصباك، دار الهلال، 2004 .
13. سيكولوجية التنشئة الاجتماعية، محمد صالح أبو جادو، دار المسيرة للطباعة والنشر، عمان ،د.ط، د.ت
14. العلم والقيم الإنسانية، ج. برنوسكي، ترجمة : عدنان خالد، دار المأمون للترجمة والنشر ووزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1990.
15. فاعلية السلطة في الرواية العراقية فؤاد التكرلي أنموذجا، محمد عبد الحسين هويدي، إشراف: لؤي حمزة عباس، جامعة البصرة، كلية الآداب، 2011 (أطروحة دكتوراه)
16. الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم ، إبراهيم مصطفى ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، 2001 .
17. فلسفة الخبرة جون ديوي نموذجا، محمد جديدي، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 2004.
18. فلسفة العلم في القرن العشرين(الأصول– الحصاد– الآفاق المستقبلية)، يمنى طريف الخولي،عالم المعرفة،د.ط ، 2000.


56) إن مراحل تطور الفكر البشري مرّ بثلاث مراحل و هي: المرحلة اللاهوتية وهي المرحلة البدائية أو مرحلة الطفولة البشرية التي خاض فيها الإنسان صراعا مع الطبيعة وفسر أسباب وجوده إلى قدرات خارقة خارقة تتأتى فيها المعرفة عن طريق التفكير الخرافي والمرحلة الميتافيزيقية (مرحلة التأمل) أي بدأ الإنسان يتأمل في الظواهر المحيطة به : وفيها بدأت المعرفة البشرية باللجوء إلى التفكير والتأمل في الظواهر المحيطة به. ومرحلة الثالثة :المرحلة الوضعية(العلمية) التي اعتمدت على الملاحظة والتجريب . ينظر: الفلسفة والعلوم، بيار كونت ماشيري، ترجمة : سامي أدهم، المؤسسات الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1994 : 18 – 21 .

19. الفلسفة والعلوم، بيار كونت ماشيري، ترجمة : سامي أدهم، المؤسسات الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1994 .
20. قصة الفلسفة الحديثة، أحمد أمين و زكي نجيب محمود ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، 1936 .
21. القمر الصحراوي ، عائد خصباك، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1984.
22. الكبار والصغار، عائد خصباك، دار الشؤون الثقافية، بغداد ، 1985 .
23. لسان العرب ، ابن منظور، دار صادر، بيروت، مادة قضى .
24. محاضرات في فلسفة اللغة ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، ط 1، ليبيا،2013.
25. المذاهب الفلسفية المعاصرة، سماح رافع مكتبة مدبولي ، القاهرة ،1973 .
26. المعرفة والسلطة، ميشيل فوكو، ترجمة: عبد العزيز العيادي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1994 .
27. المقاربة التداولية، فرانسواز ارمينكو، ترجمة: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط، 1986 .
28. مقدمة إلى نظرية المعلومات( الرموز، الإشارات والضجيج)، جون.ر. بيرس، ترجمة : فايز فوق العادة، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، دمشق، 1991 .
29. مقدمة في نظرية الخطاب، ديان مكدونيل، ترجمة: عز الدين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية، ط، 2000 .
30. من زاوية فلسفية، زكي نجيب محمود، دار الشروق، ط4، القاهرة،1993.
31. موجز تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، فرانكلين آشر، نسخة الالكترونية .
32. الموضوعية في العلوم الإنسانية، صلاح قنصوة، دار الثقافة، القاهرة، 1985
33. الموقف الثوري في الرواية العربية، محسن جاسم الموسوي، دار الحرية للطباعة، بغداد، د.ط، 1975 .
34. النقد الثقافي (قراءة في الانساق الثقافية العربية، عبد الله محمد الغذامي، المركز الثقافي العربي، ط3، 2005 .
35. نوابغ الفكر الغربي جون ديوي، ، احمد فؤاد الاهواني ، دار المعارف ط3 ،1959 .
36. نيتشه مفتتاً ، بيير بورديو ، تر : أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1996 .
37. يا دنيا يا غرامي، عائد خصباك، دار ميزويوتاميا، ط1، بغداد، 2019 .